نفسيات كشف غطاءها القرآن

بقلم : الدكتور محمود بن الشريف

■■ إذا كان هناك عديد من الأدلة على الإعجاز القرآني ؛ فإن من ألوان الإعجاز ذلك المنحى النفسي الذي كشف به القرآن عن دخائل النفس البشرية فعرّاها ، وأبانها ، وشخّص خصائصها وما اتصفت به من خير أو شر ، وإيمان واطمئنان ، أو نفاق وظلم ونكران . ■■

نماذج من النفوس البشرية كشفها القرآن الكريم

يُشقِّق القرآن دخائل النفس ومكنونات الضمير ، وأحاديث القلب وهمسات الوجدان ، وتصل بنا آيات القرآن إلى الأعماق فتظهر ما خفي ، وتكشف عما استتر ، وتُرينا ألواناً عدَّة ، وقطاعات ، وشرائح لنماذج نفسية متباينة ، وها هي ذي آيات كريمة تصل بنا إلى أغوار النفس البشرية وتُلقي الضوء على أبعادها ، فتكشف أقطارها : نفوس يحاط بها ، فتفرّ إلى الملجأ وتفزع إلى الملاذ ... ثم إذا تبدد ما ران عليها نضت عنها ثوب الخشوع .. وتنكرت وتنمَّرت !!

ونفوس لا تفترُ ولا تمل من طلب السعة ، ودوام النعم ، وامتداد أسباب الخير .. وإذا ما مسَّها شر أو ضر ارتدت إلى دياجير الظلام ، وآضت إلى أغوار اليأس وضباب القنوط .. ونفوس غير هذي وتلك ، نفوس مشرقة نيِّرة مع الله في كل آن .. دعاء وشكر في النعمة أو النقمة ... ودعاء وشكر عند المنح وعند المنع .. ودعاء وشكر عند الرِّفد وعند الرفض .. لم يلوث صفاء قلوبهم حرمان ، ولم يبطرهم جزيل سيب أو كبير عطاء .

يصور القرآن العظيم كل هذه الحالات النفسية ، وينير لنا جوانبها ويبين دخائلها فيقول :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. ﴾ (يونس : ٢٣) .

سفينة تسري وتجري .. تسري بمن فيها وتجري بهم ، تدفعها ريح طيبة تبعث البهجة والفرح في النفوس .. وسرعان ما تلبَّد الجو واكفهرّ .. وغضبت السماء وأظلمت الدنيا ، وعوت الرياح ، واهتزت السفينة في يد الأمواج التي أحدقت بها من كل مكان .. وتبين لركاب السفينة نهايتهم .. ولاحت لهم الخاتمة .. ففزعوا إلى الله داعين إياه مخلصين له الدين في التضرع والدعاء ؛ إذ لا ملجأ منه إلا إليه ، وتضرعوا إليه بكيانهم وعاهدوه قائلين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين .. وحقق ربهم رجاءهم ودعاءهم فأنجاهم .. وما أن وطئت أقدامهم الأرض وأحسوا الأمان حتى عادوا سيرتهم الأولى ورجعوا إلى ما كانوا عليه ولم يفوا بالعهد ولم يقوموا بالشكر ، بل بغوا وطغوا وأفسدوا وجاروا ..

﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ

نفسيات القرآن
كشف غطاءها

كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (الانعام : ٦٣ ـ ٦٤) .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثم لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا ، أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا تَبِيعاً ﴾ (الإسراء : ٦٧ ـ ٦٩)

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل : ٥٣ ـ ٥٤)

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ، إلا الذينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود : ٩ ـ ١١)

الفرح بالنعمة واليأس عند البلاء

الإنسان مطلبه النعيم ، ومبتغاه الإكثار من الخير ، يرنو إلى تمتيع نفسه وحسه وجسده بألوان اللذائذ وأسباب النعيم ، فإذا ما ناله الخير استبشر ، وسعد ، وتهلل ، وشاع الرضا والحبور في نفسه .. أما إذا مسّه ـ فضلاً عن ان يتمكن منه ـ ضر أو شر اسودت الدنيا في عينيه ، وملأ اليأس قلبه ، فهو يريد الحياة ضوءاً متلألئاً ، وسناء مُشعاً ، لا يشوبه ضعف أو خفوت .. ويرغب في كل شيء طامعاً أن يحلو ويخلو له كل شيء .. وإلا فاليأس يملأ عليه الشعاب ويسد عليه المسالك .

فإذا ما عفَّت نعمة الله على آثار النقمة ، ومكَّن الله له بتحقيق أمله واستجابة رجائه انتفخ وانتفش زاعماً أنّ ما يرتع فيه من خصب وخير إنما مردّه إلى جهوده الشخصية وجهاده الفردي وأنه استحق ما حصل عليه بفضل عمله وكده وجهده وجدّه ، ويغلو متخيلاً أن مكاسبه ستدوم ومنجزاته ستبقى .. ثم يسدر في تغاليه ومغالاته مؤكداً أن سعيد الدنيا هو سعيد الآخرة وأنه سيضم إلى ما معه في الدنيا الحسنى عندما يرجع إلى ربّـــه :

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ ، وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾

(فصلت : ٤٨ ـ ٥١) ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (الفجر : ١٦) .

يقـــول الإمام محمد عبده (في تفسيره لجزء « عم » ص ٨٢)

« وانت ترى أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ، فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله ولا يعرفون شيئاً من شرعه يمنعهم عملاً مما تسوق إليه شهواتهم ، وإنما يذكرون الله بألسنتهم ، ولا يعرفون له سلطاناً على قلوبهم . والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عند أنفسهم . فهم لا يبالون بما يفعلون : فإذا ذكروا الله فإنما هي حروف وأصوات لا تمتاز في منفعتها عن أصوات بقية العجماوات ...!! » .

تلك حالة الإنسان الذي لم يمتعه الله بعقل سليم ودين صحيح ، أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل والدين فأولئك الذين ترتقي إلى مثل حالهم مرتبة الإنسان ، فيفارقون تلك الغرائز الحيوانية الأولى ويصلون إلى المقام الذي لا تذهلهم فيه القوة ، ولا يشغلهم فيه الفقر عن مراعاة الحدود المعروفة فيما هو حق لهم أو عليهم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ .

التحـــذير من القنـــوط . .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ، وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس : ١١ ـ ١٢) .

هذه آيات قرآنية نفسية كاشفة تُرينا أن الإنسان إذا ما نزلت به الشدائد ووقع في المآزق ، وألفى نفسه بين رحى المصاعب التي تكاد تطحنه .. عندئذ تضيق الدنيا الواسعة في عينيه ، ويرى السبل الواضحة وقد انبهمت عليه ، ويسوَّد العالم أمام ناظريه ، وتتأزم نفسه فتدفعه إلى الانهيار واليأس والاستسلام للأفكار السوداء ، ويستعجل الشرّ لأهله وذويه ، ويستعجل أيضاً نهايته لعلها تضع حداً لما هو فيه ، فيدعو على نفسه أو على أهله أو على ماله ، يدعو دعاء كله شر وكله غُرم وضيم ... ولو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأباده وقضى على أهله وماله وولده ... ولكن الله العفو الغفور الحليم الرحيم اللطيف لا يستجيب لمن دعا على نفسه أو أهله رأفة منه على هذه النفس الضعيفة وشفقة على هذه النفس القلقة ؛ لأنه خبير عليم .. خبير بأحوال الأناس عليم بنفسياتهم :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

■ القرآن حصن النفس بالحمد بكل ما يشيعه من أمان واطمئنان ورضى يجعله علاجاً للقلق ودواء للاضطرابات والقنوط .

ومن يتجه هذا الاتجاه اليائس ويتصرف هذا التصرف الأعمى ، فيدعو على نفسه حذَّره رسول الله ﷺ ، فيما رواه الحافظ أبو بكر في مسنده عن جابر قال : قال **النبي** ﷺ :

« لا تدعوا على انفسكم ، لا تدعوا على اولادكم ، لا تدعوا على اموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » .

الجحـــود بعـــد زوال البـــلاء . .

والإنسان من طبعه الجحود ونكران الجميل ، يتجاهل اليد التي امتدت إليه بالإحسان والمعروف ، ويضرب صفحاً عما أسدي إليه من خير وبر ، ويتنكر للشخصية النبيلة التي قدمت له طوق النجاة فدرأت عنه الشر ودفعت عنه الضرر ﴿ **قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ هذا الإنسان لن يجد طريقه دوماً مفروشاً بالورد ، هيِّناً ليِّناً ناعماً إلى الأبد .. بل سرعان ما تتناوله الخطوب وتتناوله الأحداث وتنزل بساحته المصاعب والمصائب ، فإذا ما وقع في الكرب وأحاطت به الشدائد ووقفت في طريقه العقبات آنئذٍ يجأر بالشكوى ويجهر بالرجاء ، ويدعو ويتضرع ويبتهل ويتوسل وهو قلق حائر لا يرى باب الأمن ، ولا يهتدي إلى طريق الخلاص .

ويفصِّل القرآن تلك الحالة النفسية لذلك الإنسان الأول : ﴿ **وَإِذَا مَسَّـــهُ الشَرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيض** ﴾ يدعو ويكثر من الدعاء في جميع حالاته .. يدعو في قيامه وقعوده . وفي صحوه يتوسل ويبتهل ويتذلل ويمد أكفَّ الضراعة لمولاه ليكشف بلواه ، وتسيح دموعه من مآقيه حتى يكشف المولى الكرب الذي هو فيه ، ويُلقي إليه مولاه طوق النجاة فيتشبث به ويتعلق بأهدابه ... حتى إذا ما انكشف الكرب وذاب المكروه وزالت الغُمَّة ووصل إلى مرفأ الأمان وتيقن السلامة أعرض ونأى بجانبه وذهب كأن ما كان به من ذلك شيء . هذه الزاوية الإنسانية تجلوها تلك الآية القرآنية : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّـــهُ** ﴾ .

وبعد أن أبان القرآن صنيع هذه النفس الناكرة للجميل التي لم تف بما تعهدت به إبان الشدة وبما قطعته على نفسها وقت المحنة من الرجوع والإنابة والعودة إلى الطريق .. بعد أن أبان القرآن ذلك كله ذمَّ هذا الاتجاه النفسي فختم هذه الآيات الكاشفة بقوله :

﴿ **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾

النفـــس المؤمنـــــة المطمئنـــة . .

أما النفس الخيرة ، المؤمنة ، التي رزقها الله الهداية والتوفيق والسداد والرشاد فإنها مستثناة من الوقوع في تلك الهاوية ، وهي بمنأى عن الانحراف ، وبمنجى عن المؤاخذة ؛ لأنها نفس مؤمنة صابرة ، نفس وفية نقية تقية تحقق الوعد وتنفذ العهد ، تدخل في عداد تلك النفوس الصابرة في البأساء الشاكرة في النعماء ، التي قال عنها رسول الله ﷺ : « **عجباً لأمر المؤمن ، وإن امره كله لعجب : إن اصابته ضرَّاء فصبر كان الصبر خيراً له وإن اصابته سراء فشكر كان الشكر خيراً له ، وليس ذلك لاحد إلَّا للمؤمن** » .

وعن صور الوفاء بالعهد بعد أن جلا الكرب وزال المكروه ما ذكره محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل قال :

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب عكرمة فارّاً منها .. فلما ركب البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم ، اخلصوا لربكم الدعاء لا ينجي ها هنا إلا هو .. فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر ايضاً غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً . فكان كذلك .

أمـــراض المدنية الحديثة ونعمة الحمد والرضى

والمدنية الحديثة بضجيجها وصخبها وماديتها الشرسة الجامحة وتكالبها المسعور المحموم قد بعثت القلق في النفوس وأورثتها أمراضاً أشاعت في الأجسام أسقاماً عزَّ علاجها ..

والطب الحديث بمبضعه السحري ونظراته وتجاربه قد تحير أمام أدواء النفس ، ولم تستطع عقاقيره أن تنفذ إلى الأعماق لتذيب ما تركز فيها من يأس ، وما شاع بين أنحائها من ألم نفسي صبغ الحياة بلون أسود فاحم !!

والقرآن من قبل ذلك كلّه قد حصَّن النفس من أن يتسرب ظلام اليأس إلى أعماقها ويتمكن منها أخطبوط القلق بأنفاسه السامة ونفثاته المحرقة فشخص العلاج في أكسيره الناجع : **الحمـــد** .. الحمد بكل ما يحمله الحمد من معنى ، وبكل ما يشيعه من أمان واطمئنان ، وبكل ما يشعه من رضا جعله علاجاً للقلق ودواء للاضطرابات والقنوط ، وأكسيراً يتجرعه المؤمن فيسكن الاضطراب ويسكت القلق ويسكب الاطمئنان بَرْده على المؤمن الحامد فيفيء إلى واحة فينانة من الرضا يستظل بظلالها ويتنفس الصعداء ويحس نسمات الأمن تهب عليه رخيَّة نديَّة .. وحمـــد الله دعـــاء فيـــه طمـــأنينـــة نفس تُـــزيـــل مـــا ترسب في الأعمـــاق من اهتزاز عـــواطف أو جمـــوح أحاسيس .. وحمـــد الله وقود روحي يصهر النفس ويزيل ما ران عليها من شوائب اليأس ويشحذ الأفئدة بفيضٍ من أمل وأمن ورضا وتفاؤل وراحة روحية ، وبذا تغدو النفس هادئة مستقرة مطمئنة .